

الطلاق ومشكلات الأبناء

- مقدمة.
- الطلاق كعامل مثير للضغط؟.
- مقارنة الطلاق بالحرمان من أحد الوالدين.
- طلاق الوالدين في مقابل وفاة الوالدين.
- طبيعة التغيرات التي يحدثها الطلاق.
- استجابات الأطفال لطلاق الوالدين .
- مهام التكيف مع الطلاق.

مقدمة:

لهذا الفصل ثلاثة أهداف: الأول: إبراز خواص الطلاق كعامل ضغط للطفل وللمراهق فى الأسرة التى وقع فيها الطلاق ، والثانى: تقديم بنية معرفية للمهام النفسية التى يتعين على الطفل والمراهق القيام بها فى مواجهة التحديات والتحديات المعقدة التى يرفضها تحطم الزواج على تقدم لنمو والتكامل النفسى ، وأخيراً: اقتراح بعض المهام بشأن العوامل النمائية والاستجابات المميزة وجهود السيطرة التى تظهر لدى الطفل فى ظل الأثر للضغط الحاد الناتج عن لطلاق وفترة ما بعد الطلاق .

وثمة خطر محتمل يتمثل فى أن الرغبة فى تقديم المساعدة لهؤلاء الأطفال يمكن أن يدفع المجتمعات إلى القيام بتدخلات سريعة غير مدروسة. علاوة على ذلك ، فإن التدخلات التى تلائم البالغين الذين تعرضوا لتجربة ضغط معينة قد لا تلائم الأطفال والمراهقين فى نفس الظروف . ومرات عديدة: فإن الأحداث التى يرى أعضاء الأسرة لآخرين أنها خطيرة ، ثبت أنها ليست ضاغطة بنفس القدر بالنسبة للطفل. وعلى العكس: فإن الطفل يمكن أن يتفاعل برعب مع أحد جوانب التجربة التى امتنعت على الشخص الراشد كلية. وعلى ذلك ، فإن مدركات الطفل وخبرته تكون مختلفة فى الغالب عن مدركات وخبرة الراشد . بالإضافة إلى ذلك. فإن استجابات الطفل والنتائج العاجلة والدائمة للتجربة الضاغطة تبدو متأثرة بشكل عميق بالعوامل التنموية بأشكال لا تزال غير معروفة وغير مفهومة بشكل كافى.

وسوف نتناول فيما يلى المكونات العديدة لتجربة الطلاق من منظور الطفل ، إذ يستخدم مفهوم الطلاق " كمثير للضغط " . ولنظر للطلاق باعتباره عاملاً مثيراً للضغط يوفر مؤشراً مريحاً يمكن لبحث مع جميع الأجزاء المعقدة العديدة لتجربة الطلاق والتى تثير - منفردة أو مجتمعة - ضغط حاداً فى الطفل . ويتيح لنا أن نميز تجربة الطلاق عن مثيرات الضغط الأخرى ، ومقارنته بالأحداث المزعجة الأخرى

على مجموعة من الأبعاد يمكن أن تتضمن مسراتها الزمنية المناسبة ، التابع المنتظر للمراحل ، ووجود أو غياب العوامل المساندة .

وفى المقابل ، فإن مناقشة استجابات الطفل لمشكلة يكون عليه مواجهتها تعل " الضغط " كعامل محل بالتوازن . أو سلسلة من الأحداث ، وتتطلب تغييراً أو تكيفاً وهذا الاستخدام يمكن للباحث فى هذا المجال من تنظيم العديد من الأحداث المخلة بالتوازن كان مفيداً فى التمييز بين الفروق الفردية فى استجابات الأطفال الأولية لتحطيم الزواج ، وعلاقتهم بالعوامل النمائية .

الطلاق كعامل مثير للضغط

رغم أن الطلاق هو العلاج الاجتماعى الناجح لزواج فاشل ، فقد بدأ الناس ينظرون إليه بالتدرج وبقدر من التردد على أنه عامل مثير للضغط عند لأطفال والمراهقين .

وقد اعتبر هولمز وراه Holmes , Rahe (١٩٧٦) وغيرهم أن تفسخ الزواج يعد فى المرتبة الثانية بعد وفاة أحد الزوجين من حيث شدته كعامل مثير للضغط ، وطول المدة الزمنية للزمنة للتعريف معه . ومنظورهم هذا يتفق تماماً مع نتائج مسح قومى ضخمة تبين أن الناس يعتبرون العلاقة الزوجية جوهرية بالنسبة لتقييمهم لجودة الحياة ، كما يعتبر الطلاق فى المرتبة الثانية بعد الصحة البدنية من حيث التمتع بالأولوية القصوى (Campbell , Converse & Rodgers , 1976) .

وفى استعراض شامل للكتابات النفسية ، والعلية والطبية الملائمة لمجتمع المراهقين ، فى أسر المطلقين استنتج بلوم وزملاؤه Bloom & Coworkers (١٩٧٩) ، باستخدام مجموعة من المؤثرات منها دخول مستشفيات الأمراض العقلية ، أن النتائج القاسية للضغط الناتج عن الطلاق يمكن أن تظهر فى شكل مجموعة من الاضطرابات البدنية والعاطفية .

وكذلك تعكس ملاحظات الأطفال والمراهقين عند انفصال والديهم حدة

اضطرابهم . ويكشف مسح شامل للأطفال حال انفصل الوالدين اتفاقاً كاملاً بين الباحثين بشأن الأثر القاسى الذى تحدثه تلك التربة فى الأطفال والمراهقين .
ومما يدعو للسخرية استمرارية النظر للطلاق من هذا المنظور العلاجى .

وربما يكون الأثر المقصود للطلاق هو القضاء على محنة الزواج وتقليل النتائج المرضية النفسية لدى أعضاء الأسرة . والآثار غير المقصودة هى تلك التى تنشأ ليس بالانفصال فقط ولكن من جراء عوامل الضغط . وعلى ذلك : فمنذ البداية ، يتمى الطلاق إلى صنف خاص ينطوى على المشكلة والحل فى آن واحد . والشد والتوازن بين هاتين التيجتين اللتان تبدوان متضاربتين يهيم المجال الوحيد لدراسة الطلاق .

وعلى عكس التجارب المأسوية الأخرى للطفولة ، مثل سوء معاملة الطفل ، فليس الهدف هو القضاء على عامل الضغط أو تقليل حدوثه إلا إذا ارتبط ذلك التقليل بقناعة زواجية معززة . وقد وجد العديد من الباحثين أن الزواج غير المتوافق أكثر ضرراً على الأطفال من الطلاق ، ونتيجة لذلك ، نظروا للطلاق كبديل مفضل (Rutter , 1971 , Despert , 1962) . وقد افترضوا ، محقين ، أن الصراع بين الزوجين يمكن أن ينتهى بفصم عرى الزواج . وعلى أية حال ، فإن عملنا هذا يكشف أن الصراع بين الوالدين يستمر لمدة سنوات عديدة بعد الطلاق الرسمى ، وفي واقع الأمر ، فإن نسبة كبيرة (حوالى الثلث) من الأطفال استمروا يشعرون بالنزاع المعلن بين الوالدين لمدة خمسة سنوات بعد انتهاء زواج الوالدين .

ولزيادة توضيح تلك الخاصية الخادعة لتجربة الطلاق ، هناك دليل على أن غياب الأب يؤدى إلى حنين شديد وسنوات من التعاسة لكثير من الأطفال ، ومع ذلك ففي حالات أخرى ، قد يؤدى غياب الأب إلى تنمية الطفل . وفي دراستنا ، أبدى بعض الأطفال الذين كانوا يلقون من آبائهم سوء المعاملة أو الإغواء المكشوف ، أو عدم الاحترام ، طفرة نمائية ملحوظة في نهاية العام الأول بعد الطلاق ، واستمروا بحالة طيبة بعد سنوات ، ومع ذلك فإن محنة الطفل عند رحيل

أب حنون ومحجوب لا يمكن تمييزها عن محنة الطفل الذى كان والده يسئ معاملته أو يهمله ، كما أن نتيجة الطلاق بعيدة المدى ليس من السهل التنبؤ بها بالنسبة للطفل في هذه المرحلة المبكرة .

إن هدف دراسة الطلاق كعامل مثير للضغط ليس لمحاولة إغائه كما هو الحال مع مثيرات الضغط الأخرى للطفولة ، أو حتى تقليل حدوثه ، على الأقل فى الوقت الراهن ، ولكن الهدف هو فهم طبيعته وآثاره المتشعبة لكى يمكن اكتشاف طرق للقضاء على الآثار غير المقصودة التي تصاحب الطلاق .

ومن المهم في هذه المرحلة المبكرة من البحث أن نضيق التحقيق وأن نختار نمطاً خاصاً من أنماط من داخل الصورة الواسعة لتلك التجربة ، وهناك العديد من النماذج لانتهاج الحياة الزوجية ، ويمكن أن تختلف تجارب الأطفال والمراهقين اختلافاً واسعاً تبعاً لاختلاف لنمط . وسوف نتعرض لأكثر الأنماط شيوعاً ، وبالتحديد تجربة الطلاق بالنسبة لطفل تربى في أسرة سعيدة مكون من أبوين قبل الطلاق . والذى يظل بعد الطلاق في رعاية الأم . وسوف لا نتعرض في هذه الدراسة إلى تجارب الأطفال الذين تربوا كلية في أسرة من أحد الوالدين فقط . أو الذين كانوا رضعاً أو غير مدركين عند الطلاق ، أو الأطفال الذين يتفق والداهم على الرعاية المشتركة لهم . ونعتقد أن خصائص الطلاق كعامل مثير للقلق يمكن أن تختلف في كل تلك المجموعات المختلفة . وفي تلك الحالات يمكن أن تختلف المهام التوافقية المطلوبة من الطفل .

مقارنة الطلاق بالحرمان من أحد الوالدين

يقع الطلاق في تصنيف خاص من الضغط يكون حاداً في الأساس ، ويكون غير متوقع في العادة حتى لو كان محتملاً ، وله أثر شديد يجعله مخيفاً ، نظراً لأنه يغير حياة الطفل تغييراً أساسياً . والضغط من هذا النوع الخاص يسبب محنة عميقة ويكون شديد الأثر يتطلب تقبلاً سريعاً لتغيير رئيسى في الحياة وتكيفاً سريعاً للظروف المتغيرة .

وهناك عدة مثيرات للضغط تقع في نفس الصنف الواسع . وتشمل تلك العوامل وفاة أحد أفراد الأسرة المحبوبين أو صديق مفضل في وقت غير منتظر ، والابتعاد عن الجماعة ، الناتج عن النفي أو كارثة طبيعية . وهذه العوامل مع الطلاق تشتك في أنها تتطلب استيعاباً رئيسياً للخسارة وتكيفاً نفسياً يمكن أن يتحقق مع مرور الوقت . وتختلف تلك المثيرات الضاغطة عن الضغط الحاد الذي يمكن فيه استرداد الوضع الراهن ، كما في حالة المرض الحاد . وتختلف عن مثيرات القلق المزمنة مثل الفقر التي لا يمكن فيها نقطة معروفة تدل على بداية تجربة المحنة . وتختلف عن التجارب الحزينة المتقطعة أو المتكررة ، مثل التجربة التي تفرضها ظروف المعيشة مع أحد الوالدين المصاب بمرض شديد الذي يعاني من التدهور البدني والنفسي المستمر أو المتقطع .

ومن المهم فهم المسار الطويل للحرمان من أحد الوالدين والطلاق كمثيرات للضغط ، مع ضرورة دراسة تنميط الاستجابات التي تثيرها تلك العوامل بمرور الوقت . تلك الاستجابات لا بد أن تدل على فترة طويلة لما بعد المحنة قد تدوم عدة سنوات بعد الأثر الأساسى . ويمكن تمييز استجابات المحلة الحادة عن آثار الفترة الطويلة التي تعقب ذلك في الشكل والشدة والاستمرارية. علاوة على ذلك ، فإن الاستجابات في فترة ما بعد المحنة الطويلة تظهر أحياناً ببطء وبشكل أقل ظهوراً مما تفعله الاستجابات التي تصاحب المحلة الحادة ، ومع ذلك فإن تلك الاستجابات الحادة التي تظهر فيما بعد قد تكون ذات أهمية أكبر .

وفى حالة الحرمان لسبب غير الطلاق ، فإن الاستجابة الأولية والتي تكون بمثابة حزن حاد ، تغطى على كل مصادر الصعوبة الأخرى . وبالمثل في الطلاق ، فإن الاستجابة الأساسية وهي القلق ، تكون شديدة وتغطى على كل الأجزاء الأخرى للتجربة ، وتظهر التغيرات العديدة التي تطرأ على حياة الأسرة بشكل تدريجى ، وهي تلك التغيرات التي يحدثها الطلاق أو الوفاة .

وليس الطلاق بسيطاً كمثير للضغط لما يتبدى لأول وهلة ، ونادراً ما يكون واضحاً ، خلال المراحل الأولى ، ما هو الشيء الذي ضاع أو الشيء الذى تم الحصول عليه ، ومن منظور الطفل يؤدي تفكك الزواج إلى حدوث سلسلة من الخسائر وربما المكاسب . وعلى ذلك : فإن الطلاق - شأن الوفاة - يعقبه دائماً العديد من التغيرات بعيدة المدى . وعلة عكس الوفاة ، فإن التغيرات بعيدة المدى التى تعقب الطلاق تعد بتغيرات إيجابية وراحة حيث يعود الاستقرار للأسرة ، وبالنسبة لعدد كبير من الأطفال ، قد تستمر الخسائر في التغلب على أى مكاسب ، والتوازن الناتج يكون مستحيلاً .

وطبقاً لملاحظات علماء النفس بشأن الآثار القوية لتتابع التجارب الضاغطة ، قد تظل الصعوبة المزمنة ، سواء كانت اقتصادية ، اجتماعية ، أو نفسية ، والتى تتعرض لها الأسر المطلقة خلال السنوات العديدة التى تعقب الزواج ذات أثر بالغ على الأطفال الذين تزداد حساسيتهم بالفعل زيادة ملحوظة بسبب انفصام الزواج . وربما وجب تحليل تجارب الطفل أثناء لحظة الحادة وخلال فترة ما بعد الأزمة الطويلة كل على حده . وهناك في واقع الأمر ، دليل هام على أن بعض الأطفال يحافظون على توافقهم الجيد خلال المرحلة الحادة للطلاق ، ثم بعد ذلك يتدهون فجأة بشكل ملحوظ عندما يتعرضون للحرمان والتوترات الشديدة في عائلاتهم بعد الطلاق . (Wallerstein & Kelly , 1980 a) .

طلاق الوالدين في مقابل وفاة الوالدين

إن بعض الفروق بين الحرمان والطلاق كمثيرات للضغط مهمة لفهم آثارهم على الطفل ، وخاصة بالنسبة لالقاء الضوء على طبيعة كل من تلك التجارب المرتبطة بها من منظور الطفل . فالخسارة بسبب الوفاة نهائياً ، والشخص المفقود لا يمكن استرداده : والطفل الصغير جداً فقط أو الشخص ذا المرض العقلى الحاد قادر على أن ينكر - لأى فترة زمنية - الموت عندما يحدث . علاوة على ذلك . فإن الموت له تاريخ زمنى معروف ، ونتيجة لذلك : فإن حقيقة الموت أمر يسهل الاعتراف به .

وفى الطلاق يكون القواعد مختلفة. فالأبدية ليست بنفس الشكل كما فى الوفاة ، ويبدو معقولاً للطفل أن الخسارة يمكن تعويضها فى أى وقت . ونتيجة لذلك فإن الطفل من أبناء المطلقين فى أى عمر ، وأحياناً فى سن النضج ، يحتمل أن يشعر بالرغبة المستمرة فى علاج ذلك الوقت الذى تنقضى الأبدية . ففى إحدى التجارب العلاجية يشي والرستين Wallerstein إلى مريضة متوسطة العمر طلبت المساعدة من معالج ومعالجة فى وقت واحد ، وفى النهاية اعترفت لكل منهما بقلقها الأساسى بسبب رغبتها فى إحضار كل من الطبيب والطبيبة معاً فى نفس الحجرة لكى يكونا مساويين للأسرة السليمة التى فقدتها وهى طفلة صغيرة . وكان من الصعب إقناع تلك المريضة بأن تجسّد خيالها ، بمشاركة كلا الطبيبين لن يشفيها من اكتئابها الحاد المتكرر .

وزيد من استمرار انشغال الطفل بتخيل أن الخسارة يمكن تعديلها فالطلاق حقيقة يكون مسبقاً بعدة انفصالات ، كل منها يمكن أن يبدو حاسماً ولكنها ليست انفصالات نهائية . علاوة على ذلك ، فإن الطلاق خسارة جزئية فقط ، فالأطفال يظلون لفترة طويلة يرون الوالد الراحل عدة مرات أسبوعياً .

وهناك فروق أخرى فى أن الطلاق ، على عكس الموت ، فهو قرار اختيارى دائماً لأحد الطرفين على الأقل ، والمشاركين فى القرار يدركون هذه الحقيقة جيداً . ويعرف الطفل جيداً أن الطلاق ليس كارثة طبيعية ، وأن سببه المباشر هو قرار أحد الوالدين بالانفصال ، ويمكن سببه الحقيقى فى فشل الوالدين فى المحافظة على الزواج والضغط الذى يتولد لدى الطفل دائماً ما يحمل رسالة مؤداها أن الزواج كان يجب تجنبه ، وأن شخصاً ما مسئول عن التعاسة التى حدثت .

وهذه المعرفة تثقل كاهل الطفل . ورغم أن أحد الوالدين والطفل أن يتداولوا معاً من أجل المساندة المتبادلة أمام عاصفة الزواج ، فإن مأساة الطفل المرعبة تنشأ من معرفته بأن الضغط الذى يعاني منه تسبب الإدراك السليم بأن الوالدين هما

سبب نكبته ، وأنهما أصبحا كذلك بمحض اختيارهما ، وهذا الوعى قد يأتي إن أجلاً أو عاجلاً ، بشكل ضمني أو بشكل ظاهر . ومن المحتم أن يكون الضغط أكبر على الطفل نفسه ، أو إحساسه بالخطر . وبالنسبة للطفل الذى يعرف أن فهمه لا يمكن التعبير عنه دون إصابة أو إغضاب أحد الوالدين أو كلاهما ، وبذلك يزيد في خطورة موقفه . ومن سخرية القدر أن الضغط يرتبط بالإدراك السليم والفهم الدقيق لطبيعة هذا الضغط ، فإن الطفل في الأسرة المطلقة يحمل عبئاً إضافياً نتيجة محاولته للتوافق ، وهو عبء لا يشعر به الأطفال الذين يواجهون ضغط الحرمان عقب وفاة أحد الوالدين .

ويعتبر الغضب الذى يصبه الطفل على كلا الوالدين بسبب هدمهم للأسرة ، أو على الطرف الذى طلب الطلاق استجابة متكررة بين الأطفال ، مهما كانت أعمارهم .

وبينما الغضب موجود دائماً في الحرمان - غضب الشخص الحى بسبب التخلّى عنه ، أو اتهام النفس بالفشل في منع وفاة أحد الوالدين - فهناك فرق أساسى بين غضب الطفل المحروم من والديه الذى يرجع إلى التخيل والإدراك الواقعى للطفل من أبناء المطلقين بأن أحد الوالدين أو كلاهما خذلاه وقت الحاجة . واحتمال اللوم أو الغضب موجود دائماً في الطلاق ، بشكل أقوى مما يحدث عقب الوفاة وقد يدوم لمدة سنوات طويلة بشدة لا تخنو (Wallerstein & Kelly , 1980 a) . والعمل من خلال هذا الغضب يصبح من أهم المهام التى يجب أن يواجهها الطفل أثناء فترة ما بعد الطلاق.

وتنطوى كلتا التجربتين على الشعور بالذنب ، ولكن بأشكال مختلفة . فالطفل المحروم من والديه يعانى من الشعور بالذنب لفشله فى إنقاذ الوالد الذى مات . وتخيل القدة على إنقاذ الميت يلزم الطفل باستمرار ، وشأنها شأن الفكرة التى مؤداها أن غضب اللحظة ، أو الرغبة فى الثأر كانت مسئولة عن الوفاة . وخلال فترة الحداد ، يتعين على الطفل الحزين أن يتخلص من الذنب الطاغى والاتهام

المصاحب للنفس بمعرفة حقيقة الموت وأسبابه الحقيقية وبالمثل ، فإن أبناء المطلقين يشعرون غالباً أن ذنوبهم الصغيرة ، المقصودة وغير المقصودة ، ربما كانت سبباً في الطلاق :

« لقد كنت أحدث ضوضاء كثيرة أثناء اللعب » ، « لم أسلم أمى رسالة أبى » ، « لقد كان كلبى غير مهذب » . كل تلك التعبيرات يمكن أن تستمر لفترة طويلة ، خاصة فى عقول الأطفال الصغار ، لتفسير الطلاق لا يستطيعون فهمه إلا فى تلك الفترات التى يختلون فيها بأنفسهم . ويدفع الذنب المزعم العديد من الصغار إلى الرغبة فى علاج العمل الخاطئ وإعادة الزواج . وهذه الرغبة تكون أقوى فى حالة الطلاق لأنها تتعزز بسبب وجود الوالدين على قيد الحياة .

وبما كان أهم الفروق هو أن الموت على عكس الخسائر الأخرى . يعتبر تجربة عالمية ، وكل حى عند مواجهة موت شخص آخر يعرف ذلك . وكل شخص يشع بالرعب والراحة عندما يعرف أن نفس المصير ينتظره . وهذه المعرفة تزيد قلق الأحياء . والطلاق يثير السؤال الرئيسى ، هل نفس المصير ينتظرنى ؟ وبظل هذا السؤال بمثابة اهتمام شخصى من أبناء المطلقين . ويعاود الظهور كلما تقدم الطفل فى كل مرحلة نمائية ، وغالباً ما يبدو فى أوج قوته عندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة و ينتظر بقلق إلى ما ينتظره عندما يعبر القدرة الموصلة إلى النضج .

وأخيراً ، فإن الوسط الاجتماعى ودعم الجماعة المتاح تختلف بالنسبة للأطفال فى كل من تلك المجموعات والطلاق ، فى بدايته بشكل مؤكد - يعتبر طيقاً موحشاً بالنسبة للأطفال والمراهقين فى العائلات المطلقة . وعلى عكس المشكلة الاجتماعية التى تتجمع لحضور مراسم الوفاة والمساندة التى يلقاها فى فترة ما بعد فقد أحد الوالدين مباشرة . فعندما يحدث الطلاق لا تكون تلك المساندة موجودة فى الغالب . ومرات عديدة ، يظل الأقارب والجيران بعيداً ، وقد ينحاز الأجداد إلى أحد الطرفين فى الصراع أو يبدون التبرم بقرار الزوجين الطلاق . وعلى ذلك فإن الطلاق يمثل محنة شديدة بالنسبة لكل من الأطفال والبالغين فى وقت تتلاشى فيه المساندة ، برغم الحاجة المتزايدة للمساعدة وقت الوحدة .

ويشترك أطفال الطلاق والحرمان فى إدراك أن ظلاماً قد ألقى على حياتهم. وتنطلق تلكا الخبرتين من قلق منتظر بشأن المستقبل. وتتطلب محاولات السطرة جهداً مجدداً فى كل مرحلة نمائية لأن الأسئلة التى يثيرها أى من الطلاق أو الوفاة تعاود الظهور أو تستمر كلما تجدد البحث عن الوالد الغائب أو الأسرة المترابطة لاشباع حاجات فى كل مرحلة نمو تالية.

المسار التاريخى للطلاق

يمكن فهم الطلاق بشكل دقيق كعملية متعددة المراحل لعلاقات عائلية تتغير بشكل جذرى تبدأ بانفصام الزواج، وفترة ما بعد هذا الانفصام مباشرة، وتستمر عدة سنوات من عدم التوازن خلال الفترة الانتقالية، ثم تستقر فى النهاية مع إعادة استقرار العائلة بعد الطلاق.

وقد نظر علماء النفس للطلاق، متأثرين جزئياً بالعملية القانونية - كحادثة فردية مثيرة للضغوط - أو كفترة وجيزة للتمزق، يعقبها استقرار فى العائلة التى يرعاها أحد الوالدين. وتؤكد ملاحظتنا أن عدم استقرار العائلة الذى يحدثه تمزق الزواج يحتل جزءاً هاماً من سنوات نمو الطفل. وكان متوسط الوقت الذى كانت تتطلبه السيدات لاستعادة الإحساس بالنظام والاستقرار فى حياتهن يتراوح بين ٣-٥ سنة بعد الانفصال. وهذه التقديرات الزمنية يمكن أن تمتد بدرجة كبيرة لدى العديد من الأسر إذا أضفنا فترة عمل الاستقرار وعدم التوازن للزواج الفاشل قبل قار الطلاق. وسوف يختلف الإطار الزمنى لتلك العمليات، ولكن منظورا واقعياً يمكن أن يعتبرها تحتل فترة من ٣-٥ من الانفصال، ٢-٤ سنوات من الطلاق. وهذه الفترة تغطى نصف الفترة الزمنية للطفل عمر ٧ سنوات وربع طفولة طفل عمره ١٢ عاماً.

مراحل عملية الطلاق

رغم الحاجة للملاحظات إضافية لعينات أكبر وجماعات سكانية مختلفة. فإنه يمكن تصور وجود عدة مراحل متابعة لعملية الطلاق. والتى برغم التداخل يمكن تمييزها

عن بعضها البعض:

والمرحلة الحادة تحدث فجأة نتيجة للانفصال الحاسم للزوجين وتكون مصحوبة في العادة بالخطوة القانونية للترتيب لحل الزواج ، ورحيل أحد الوالدين عن البيت ، كما هو شائع في بلادنا . وتتراوح مدة هذه المرحلة من عدة شهور إلى أكثر من سنة من بداية تلك العملية القانونية ، والتي تحدث - فى معظم التشريعات - قبل قرار الطلاق النهائى بعام كامل على الأقل . وترتبط البيئة المأساوية ، الفوضوية غالباً ، للمرحلة الحادة بحقيقة مؤاها أن قرار الطلاق فى أسر بها أطفال نادراً ما يكون قرار تبادلياً ، ولكن يطلبه طرف واحد من أطراف الزواج ويعارضه الطرف الأخر أو يقبله بتردد .

وتغضى المرحلة الانتقالية التى تلى ذلك فترة عدة سنوات ، يقوم فيها الكبار والأطفال أدوار غير مألوفة وعلاقات جديدة داخل تركيب الأسرة الجديدة ، وفى الغالب تقوم وحدة الأسرة الجديدة بتغيير محل إقامتها . ويمكن أن تتعرض الأم والأطفال إلى انخفاض مستوى المعيشة وأسلوب حياة جديد ، حيث تتحمل الأم جزءاً أكبر من المسئولية الاقتصادية ، ويحتمل أن تتغير علاقة الوالد بالطفل تغيراً جذرياً ، خاصة من خلال علاقة الزيارة . وهذه التغيرات الجذرية تتطلب عمليات توافق معقدة ومؤلمة .

وأخيراً مرحلة استقرار تتأسس فيها أسرة ما بعد الطلاق كوحدة مستقرة تؤدي وظائفها . وتمثل الأدوار الاقتصادية والاجتماعية وأنماط العلاقة فى ذلك الوقت تلك التى ظهرت أو التى تم استعادتها بعد مرور الفترة الانتقالية. ويعتبر الزواج من جديد كعملية متكررة خلال وعقب المرحلة الانتقالية ، ويحدث تغيرات إضافية فى كل مجالات الحياة العلمية .

ولا تمر كل الأسر المطلقة التابع من التغيير . إذ يمكن أن تظل بعض الأسر ثابتة عند المرحلة الحادة . وبعض الأسر تنفق جهودها ، وحتى مواردها المالية ، فى صراع مرير ومتصل حول الأطفال أو الممتلكات - سواء داخل أو خارج المحاكم .

وبالنسبة لتلك الأسر : يظل الضغط الحاد مرتفعاً ويصبح مزمناً بسرعة ، ولكنه

لا يتبدد ولا يجمد .

وتظل أسر أخرى فى مرحلة انتقالية. وقد تنتقل الأسرة من مكان لآخر دون استقرار لسنوات طويلة. أو قد يظل عدم الاستقرار واضحاً فى غمط من الاضطراب الأسرى يتميز بكثرة الناس الموجودين فى البيت ، وتغيرات متكررة فى مجالى السكن والعمل ، يصحبه إحساس مستمر بالوجود فى مهب الريح ، رغم انخفاض مستوى التوتر العالى الأصلى .

طبيعة التغيرات التى يحدثها الطلاق

إن التغيرات التى تحدث خلال تلك السنوات يحتمل أن تظل فى مرحلة انتقالية مختلفة عما هو منتظر وقت اتخاذ قرار الطلاق ، ويحتمل أن تكون مفاجئة ، حتى عندما تبدأ فى التلاشى بالتدرج ، وعلاوة على ذلك يحتمل أن تحدث التغيرات فى جميع مجالات الحياة الأسرية : الاقتصادية ، الاجتماعية ، النفسية ، والجنسية ، بالإضافة إلى التغيرات التى تطرأ على علاقة الطفل بالوالدين ومجالات الأداء الوظيفى الأسرى ، وتحدث كثير من التغيرات التى تنعكس فى المدرسة ، فى الحى ، فى البيت وفى أنماط رعاية الطفل ، وفى تواجد كل من الوالدين ، وفى مستوى المعيشة العام وذلك فى فترة زمنية قليلة خلال أوائل ما بعد الانفصال . ونتيجة لذلك: فإن تجربة الكثير من الأطفال تتمثل فى أن كل جوانب حياتهم فى الغالب فى حالة قلب متصل خلال فترة من الزمن ، وأن العالم كما عرفوه فقد معناه من حيث الاستقرار والنظام . وتحدث كثير من تلك التغيرات - بطبيعة الحال - داخل أسرة سليمة أيضاً. ورغم ذلك: فإن الأسرة السلمية يحتمل أن تنحى بدلاً من أن تنكسر بفضل تلك التغيرات ، وتزويد أفراد الأسرة بمعنى أساسى من التماسك والاستقرار ، حتى فى خضم الاضطراب لخطير ، وفى وقع الأمر: فإن من الوظائف الأساسية للأسرة توفير معنى للاستمرارية ومكانا للراحة فى قلب الجانب المعروف من الحياة المجهولة والتغيرات التى يحدثها الطلاق مثيرة للضغوط لأن دور الحماية للأسرة قد تداعى ، وذلك: فإن كل فرد داخل الأسرة المطلقة لا يشعر بالتغير فقط ، ولكنه يشعر بالتعرض لخطر أكثر تهديداً بالأثر المحتمل لتلك التغيرات ، وفيما يلى نعرض للمراحل التوافقية لمشكلة الطلاق :

المرحلة الحادة :

خلال المرحلة يمكن أن تتضمن التغييرات سلوكيات جديدة فى الوالدين تختلف بدرجة كبيرة عن السلوك المعتاد ، ويواجه الأطفال تمييزاً ملحوظاً فى الصور ، ورغم أن تلك السلوكيات الغريبة قصيرة الأجل عندما تكون فى أوجها ، فإن الطفل يعوذه التأكيد على عدم حدوث السلوكيات المعتادة ، وهذه السلوكيات الممزقة الجديدة ذات أنواع مختلفة وتشمل : الاتهامات اللفظية ، التهديدات ، والغضب المصحوب بالعنف والاكتئاب الذى يمكن أن يتضمن التفكير فى الانتحار .

ومن الطريف أن نؤمن السبب الذى يجعل كثير من البالغين يحسون بالطلاق على أنه مؤثر على تكاملهم لعقلى . وثمة تفسير لذلك بأن شدة استجابة كثير من البالغين ترتبط بحقيقة مؤادها « أن قرار إنهاء الزواج نادراً ما يكون متبادلاً » وعلى ذلك : فإن هناك إحساساً بفقدان التحكم أو الضبط الداخلى فيما يتعلق بواحد من القرارات الرئيسية التى يتخذها الفرد طوال حياته ، ورغم احتمال وجود اتفاق على الحالة المؤلمة للزواج ، فإن هناك خلافاً حاداً فى الرغبة فى إنهائه ، وليس من المألوف بالنسبة لعلاقة الزواج التى فقدت معناها لسنوات طويلة أن تعود فى النهاية بالتهديد بإنهائها ، كما أنه ليس من الشائع بالنسبة للناس الذين عاشوا متجاورين جنباً إلى جنب لسنوات طويلة فى حالة عزلة بدون اتصال جنسى أن يتأثروا بالرفض والتحقير .

وحتى الزواج الهش أو الفاشل يمكن أن يوفر بنية تعمل كأساس للأمان وكمصدر للتحكم الخارجى فى الذات . وعندما تفشل بنية الزواج ، تنطلق الإحساسات العدوانية والميول الجنسية التى كنت تحت السيطرة بقوة جديدة وبجهود قليلة للسيطرة عليها ، وسيطر التعبير المنطلق عن تلك الإحساسات على كثير من البيوت التى كانت تتميز قبل قرار الطلاق بحياة متحفظة .

القابلية المتلاشية للوالد :

إن المرحلة الحادة هى مرحلة اضطراب عضوى ، وتغير سيكولوجى وتلاشى

تواجد الوالدين والأهل الذين تسلموا وظائف جديدة يضطرون إلى ترك أطفالهم مع جليسات جديدات ، أو في مواقف جديدة ، أو بمفردهم ، وفي بعض الأحيان يكون عبء العمل ضخماً لدرجة أن الأطفال الصغار يحتاجون إلى أن يجهزا غذاءهم بأنفسهم ، ويذهبون إلى المدرسة وحدهم للفراش دون مساعدة ، وعلى ذلك فإن تغيرات العملية تلك تقوم بنصيب فى تقليل وقت الوالدين وعنايتهم بالأطفال ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن بحث الوالدين عن علاقات جديدة يحظى بالأهمية القصوى ، ويزيد من تقليل الوقت المخصص للأطفال .

ويكون بقاء ووجود الطرف الزائر أو الذى لا يتولى الرعاية غير كافٍ لزيارات مطولة ، والزيارات الأولى تكون غير مريحة ، متوترة ويمكن أن تكون بمثابة بديل مؤقت ، علاوة على ذلك : فإن القليل من الوالدين الزائرين يكونون مستعدين لتحدى علاقة الزيارة ، كما أنهم لا يستطيعون إدراك مدى صعوبة إنشاء تلك العلاقات أو المحافظة عليها فى السنوات القادمة.

وقد لفت هيزرنجتون وآخرون Hetherington (١٩٧٨) الانتباه إلى الاضطراب الأسرى الذى يسود فى فترة ما بعد الطلاق بنمطها القسرى فى الرقابة ، وتوتر أعصاب كل من الأم والطفل ، وحالة نقص الكفاءة ، وإحساس أقوى بالعجز لدى السيدة التى تحاول تعزيز دورة مستمرة من التفاعل المتبادل والسلوكيات المدمرة المتكررة ، وملاحظاتنا الخاصة مماثلة فنحن أيضاً نرى اضطراباً وخطلاً فى النظام ونقص الانتظام فى تطبيق النظم المنزلية ، وتتمثل الأسباب الرئيسية الكامنة وراء تدهور النظام المنزلى الذى توصلنا إليها هى: التعب وزيادة ، الأعباء ، خوف الأم من رفض الأطفال لها ، ورغبتها فى تلافى التأنيب بسبب الطلاق ، والخوف من غضب الأطفال أن يدفعها إلى الاستسلام للمطالبات الصاخبة للأطفال ، والتخلى عن الانضباط الذى يجب أن يسود المنزل .

لكل ما سبق من أسباب ، يتبين أنه خلال ما بعد الطلاق مباشرة وللعام الأول ، يميل الطرف الراعى لأن يكون أقل كفاءة كوالد ، وأقل قدره على المحافظة على بنية

النظام المنزلى ، وغير متواجد بشكل كافي أمام الأطفال ، ويكون الصغار شديدي الاستشارة ، متوترين وميالين للاتهام وناثرين.. ويكون النتيجة هي سيادة الفوضى ، ونقص الانضباط وانعدام الرعاية ، والتي بدورها تزيد من قلق جميع المشتركين .

تجربة الطفل أثناء المرحلة الحادة:

إن انشغال الوالدين بمشاكلهم الخاصة يقلل من العناية أو الانتباه الذى يحظى بهما الأطفال ، ويشعر كثير من الأطفال بالرعب والقلق بسبب الحالة النفسية للوالدين وسلوكهم ، وبشدة الصراع ، وبسبب العنف البدنى الذى يمكن أن يحدث أمام الأطفال ، ونادراً ما يتم حماية الأطفال من مشاهدة المناظر الغاضبة ، وفى بعض الأحيان يحدث الشجار فى وجود الأطفال .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن سلوك وضغط أحد الوالدين يزيد من وعى الأطفال بأن الوالدين غير متواجدين للمساعدة خلال أزمة الأسرة فى خضم إحساسهم بضرورة الاستفادة من مواردهم . وهذا الإدراك ذا أهمية بالغة لحالة استجابة الأطفال وتثير ردود أفعال واسعة ، يتربط كثير منها بالمرحلة العمرية .

استجابة الأطفال لطلاق الوالدين

١- الفروق العمرية:

للعوامل النمائية أهمية بالغة فى استجابات للأطفال والمراهقين فى فترة تمزق الزواج ، ورغم أن الفروق الفردية هامة فإن عمر الطفل والمرحلة النمائية تبدو كأهم العوامل التى تحكم الاستجابات الأساسية ، وتؤثر مرحلة النمو تأثيراً عميقاً على حاجة الطفل ، وتوقعه للوالدين ، وإدراك الضغط ، بالإضافة إلى أساليبه التوافقية وإستراتيجياته الدفاعية .

ومن الممكن ظهور أنماط استجابات مختلفة ترتبط بالمجموعات العمرية المختلفة ، فمن المتوقع أن يحدث ارتباط بين استجابات الأطفال السلوكية الأساسية تجاه الطلاق وعمر الطفل ومرحلته النمائية .. ورغم ذلك ، فقد ندهش عندما نكتشف

المدى الذى وصلت إليه مدركات الطفل وهمومه وخيالاته عن الطرق ، وأسبابه ونتائجه المحتملة بالنسبة لهم ، وأن استجاباتهم العاطفية الرئيسية والتعاطفية كانت محكومة بعمرهم وموقعهم على سلم النمو وقت التمزق الأسرى .

فالطفل فى عمر ما قبل الدراسة عقب تمزق الزواج يحتمل أن يتأخر من الناحية السلوكية ، ويحتمل أن يقلق على كونه مرفوضاً من جانب كلا الوالدين ، ويحتمل أن يشعر أكثر من نظائره من الأطفال الكبار بمسئوليته كسبب من أسباب الطلاق ، ويحتمل أن يصبح مدركاً لكل حالات الانفصال وأن يصاب بالهلع من جراء الانفصالات الروتينية أثناء النهار وخاصة عند النوم ، ويحتمل أن يتعرض لاضطرابات نوم معتدلة ، ويحتمل أن يكون ميالاً للبكاء ، سهل الاستثارة ، وأكثر عدوانية ، ويحتمل أن يعانى من الفروق عن اللعب .

والأطفال فى المرحلة العمرية (٥، ٥-٨ سنوات) يظهرون اكتئاباً معتدلاً ، ويكونون مشغولين برحيل الوالد عن البيت ، ويكون حزنهم ظاهراً وشوقهم قوياً لعودته ، ويخافون من أن يحل أحداً محله (هل سيحصل والدى على أم أخرى ، وسكن آخر ، وظل صغير آخر؟ ..) ، ويعتبر رحيل الوال بمثابة رفض له (لو كان يجنبى ، لما كان قد رحل) ، ونصف الأطفال تقريباً فى هذه المجموعة العمرية أحسن بالتمزق فى تعلمهم بالمدرسة ، بالإضافة إلى تدهور علاقاتهم بأقرانهم أثناء العام التالى لقرار الطلاق .

وعلى النقيض، فإن الأطفال فى المجموعة العمرية الأكبر ، يكونون وقت تمزق الزواج ، أكثر احتمالاً لاعتبار أحد الوالدين مسئولاً عن الطلاق والآخر ضحية ، ويحتمل أن يصبوا جام غضبهم على أحد الوالدين أو كليهما ، وغالباً ما يعبرون عن ذلك الغضب بشكل ظاهر ومباشر بطرق يمكن أن تسبب القنوط لأحد الوالدين ، ويحتمل أيضاً أن يكونوا مدركين للسلوك الجنسى للوالدين ، وأن يجدوا ذلك السلوك مشجعاً ومفرقاً فى آن واحد ، وتظهر عليهم أعراض بدنية فى ذلك الوقت .. وقد اشترك المراهقون الصغار فى الغضب الشديد الذى أحس به أطفال

ما قبل المراهقة أو الأطفال الكبار فى سن المدرسة ، ولكنهم أيضا عرضوا مجموعة من الاستجابات السلوكية الخاصة التى تعكس أثر الطلاق على العمليات النمائية والصراعات التى يعانى منها المراهق .

الفروق بين الجنسين :

تكشف نتائج الدراسات المتعلقة بالاستجابات خلال تلك المرحلة الحادة ، أن الفروق بين الجنسين فى الاستجابة للضغط الناتج عن الطلاق يمكن تمييزها بسهولة، وعلى ذلك فإن استجابات الأولاد البنات اتخذت طريقاً مختلفاً لكل منها، ومن البداية أظهرت البنات (فى بيوت رعاية الأمهات) تحسناً فى توافقهن فى البيت والمدرسة أفضل من الأولاد ، وكانت الفروق بين البنين والبنات واضحة بشكل خاص خلال العام والنصف الأول عقب الانفصال النهائى ، وبعد خمسة سنوات تلاشت تلك الفروق ، فعلى سبيل المثال : أصيبت مجموعة من البنات اللاتى عند دخولهن مرحلة المراهقة باكتئاب حاد للمرة الأولى ، وبشكل عام : فلا العمر ولا النوع بديا دالين فى تمييز الأطفال المضطربين عن الأطفال الذين كانوا متوافقين تماماً بعد خمسة سنوات من الطلاق ، وبدأت الفروق بين الأطفال بعد خمسة سنوات أقل ارتباطاً بأثر تجربة الطلاق على تطورهم وأكثر ارتباطاً بالفروق الفردية بين الأطفال .

مهام التكيف مع الطلاق

بعد أن ظهرت عدة جوانب لتمزق الزواج باعتبارها عوامل مثيرة للضغط العنيفة من وجهة نظر الطفل الذى تربى فى أسرة مكونة من والدين ، فإننا نتحول الآن إلى محاولة لتصوير استجابات الطفل بمرور الوقت ، واستخدام المهمة كمكون منظم يمكن أن يساعد على دفعنا إلى الخطوة التالية لتغطية الأرض النظرية والتجريبية بين مفاهيم الضغط والتوافق ، فيتوسيط مفهوم المهام ، نستطيع صياغة أسئلة ترتبط بجهود الطفل فى التوافق بتوضيح أنماط التوافق وأى جوانب التجربة الضاغطة يتوافق معها الأطفال ؟ وخلال أى فترة زمنية ؟ وفى أى تسابع مؤقت ؟

وبأى نوع من النتائج ؟ وفى الإلمام بكل من السلوك الظاهر للأطفال بالإضافة إلى تجربتهم النفسية الداخلية ، فإن مفهوم المهام واتقان الأطفال لها يوف مدخلاً للأهمية النفسية لاستجابات الأطفال ، ومجالها الاجتماعى ونتائجها الاجتماعية ، بالإضافة إلى ذلك : فإنه يمكننا من تصور الاستجابات للضغط ليس فقط خلال فترة الطفولة والمراهقة ، ولكن فى المجال الأوسع .

إن مفهوم المهام يرجع فى أصله إلى صياغات فرويد الأولى عن « العمل المأساوى » الناتج عن الخسارة المفروضة على الشخص المحروم يستدمج ، ويعرف المفهوم العمليات النفسية التى لا بد أن يتعرض لها الشخص المحروم لكى يدمج التجربة الضاغطة ويواصل حياته بدون مرض عقلى ، وقد قام لندمان Lindman (١٩٧٤) وكابلان Caplan (١٩٨٥) بالقاء مزيد من الضوء على العمل « العمل المأساوى » « Grife work » والمهام المرتبطة به وكان هذا المفهوم هاماً بالنسبة لتكوين نظرية الأزمة وفى تطوري التدخل فى الأزمة كوسيلة للعلاج النفسى ، كما أن المهام جوهرية بنفس القدر لنظرية إريكسون Ericson البنائية لمسار النمو البشرى .

إن كلا من القيود الزمنية والتتابع الذى تفرضه كل من المهام المرتبطة بالطلاق له أهميته ، وهناك عدة مهام تحتاج لتلبية عاجلة ، خلال الشهور القليلة الأولى لانفصام الزواج ، خلال العام الأول على أقل تقدير ، وتتضمن تلك المهام ستة مهام يجب اتقانها :

وتعرف المهمة (١) بأنها الاعتراف بانفصام الزواج ، والمهمة (٢) بأنها استعادة إحساس بالتوجيه والحية فى مواصلة الأنشطة المعتادة ، ويرتبط اتقان الطفل الناجح لتلك المهام العاجلة نسبياً بالمحافظة على معدل تطوره وباستئناف التقدم فى المدرسة بعد انحدار أساسى ومتوقع فى فاعلية التعلم والآراء الأكاديمية .

وهناك مهام أخرى تفرض تحديثها بشكل أقل حده ، بمعنى أن تحقيقها ينطوى على فترة تأخير أطول قد تمتد عبر سنوات نمو الطفل ، ويحتمل أن تصبح تلك المهام ضرورية فى منتصف مرحلة المراهقة ، وربما يضاف إلى هذه المرحلة المهمة

(٣) « التعامل مع الخسارة والإحساسات بالرفض » ، المهمة (٤) « العفو عن الوالدين » ، والمهمة (٥) « تقبل دوام الطلاق » .

والمهمة الأخيرة ، ذات الأهمية البالغة للمراهقة ، تعتمد على كفاءة ثبات الأطفال فى المهام الأولى لانجازها بشكل كامل ، وهذه المهمة السادسة والأخيرة والتي يمكن أن نطلق عليها ، حسم قضايا العلاقة ، هى ، على المدى البعيد أهم المهام لكل من الطفل والأسرة ، وللمجتمع أيضاً ، وفيما يلى تتابع المهام التكيفية مع طلاق الوالدين .

المهمة (١) :

الاعتراف بانفصام الزواج:

إن أول وأبسط مهمة للطفل هى الاعتراف بانفصام الزواج بين الوالديه ، واستيعاب نتائجه المباشرة بعيداً عن التخيلات المخيفة التى تكون قد ظهرت فى مخيلة الطفل ، وثمة عقبة أساسية تحول دون اعتراف الطفل بانفصام الزواج تتمثل فى التخيلات العديدة التى بها يضيف على تلك التغيرات أسباباً ونتائج مخيفة .. وهناك عقبة أخرى أمام الطفل فى الاعتراف تتمثل فى سيل من الشعور القوية تفرض إحساساً طاغياً بالتهديد ، وبطبيعة الحال فإن : رغبة الطفل القوية لإنكار الصداق واستعادة الحياة الأسرية السليمة تلعب دوراً هاماً أيضاً . وسوف يكون النجاح أو الفشل محكوماً بعدة عوامل: قدرة الفرد ومستواه النمائي فى مجابهة كل من الحقيقة الداخلية والخارجية ، والمعونة التى تقدم للطفل من الأسرة والمحيط الاجتماعى ، ويمكن اعتبار التفوق المعرفى ، فى هذا الصدد ، بمثابة دلالة على الدقة والإتقان ، وعلى القدرة العاطفية والفكرية للطفل على فهم سير الأحداث ، مجتمعة مع السيطرة على التخيلات المخيفة والمزعجة .

وبالنسبة لكثير من الأطفال ، فإن مهمة فهم الطلاق والفصل بين الحقيقة والخيال ، والتمييز بين الواقع والأحلام يعوقها سلوك الوالدين المضطرب ، الذى يمكن أن يصل إلى حدود غريبة تحت القوة الضاغطة للغضب الجامح أو الاكتئاب .

ويضيف إلى ذلك الغياب النسبي للتأكيد ، والتفسير والمساندة من الوالدين وغيرهم من الكبار ، بالإضافة إلى ذلك ، فإن المجاهيل الكثيرة وعلامات الاستفهام التي تميز عملية الطلاق ، والتغيرات السريعة الكثيرة التي سبق وصفها تسهم في زيادة قلق الطفل .

والعوامل النمائية ملائمة لإدراك واتقان هذه المهمة ، فالمرهقون وكبار الصغار لا ينشغلون بهذه المشكلة مثلما يفعل الصغار ، ورغم ذلك فإن عدداً كبيراً من الأطفال الكبار يجدون مشقة في الاعتراف بحقيقة الطلاق ، وكان سلوكهم يعكس معاناتهم ، على سبيل المثال : فإن صبياً عمره ١٢ سنة عندما علم بطلاق والديه الوشيك جرى داخل البيت وهو يصرخ ((إنتم تحاولون قتلنا جميعاً)) ، وطفل آخر عمره ١٠ سنوات بدأ يتقيأ ، وقد عكست ردود الأفعال الأولى لكثير من هؤلاء الأطفال إدراكهم للطلاق باعتباره يحمل نتائج مأساوية .

كيف ينجز الأطفال مهمة الاعتراف:

يمكن أن يتغلب معظم الأطفال على قلقهم بأن يتعرفوا بالتدريج أن مخاوفهم ومتابعهم التي سببها لأنفسهم ولوالديهم - والتي كانت تمكن وراء المهمل - كانت غير محتملة الحدوث ، فكثر من الأطفال يخشون من البداية من أن يتخلى الأب عنهم ، وتوقع معظم الأطفال أن أمهم يمكن أن تفعل ذلك ، وعدد قليل من الأطفال يخشون من إخراجهم من البيت ... وبمرور الوقت وعندما يثبت أن مخاوفهم تلك كانت بلا أساس ، يستطيع الأطفال فصل الحقيقة من بين تخيلاتهم ، وأن يتخلصوا من سلوكهم المتخلف الناشئ عن القلق ، والعودة إلى أنشطتهم المعتادة .

وبالمثل ، فإن قلق الأطفال يخف عندما يؤكد لهم أحد الوالدين على استمرارية الحب والرعاية ، وفي بعض الأحيان يخف القلق بشكل جوهري عندما يستطيع الطرف المتبقى من الولدين إدراك القلق الأساسي للطفل ، وتعامل معه مباشرة . وعندما حدث ذلك : تتوطد العلاقة بين الوالد والطفل ، ويستطيع الطفل أن يعتمد

على القوة الجديدة لزيادة قدرته على التعامل مع الخيال والخوف ، فعلى سبيل المثال : اعترف طفل - عمره أربعة سنوات غادرت والدته المنزل بعد حدوث حريق بسيط فى البيت - لوالده بأنه لم يستطع النوم أثناء الليل لأنه كان يخشى أن تكون الأم قد احترقت فى الحريق ، وقد استطاع أن يتفوه بهذا الاعتراف بعد أن تحدث الوالد معه فى النهاية ، وبعد أن أخذ الطفل لزيارة الأم حيث قضوا فترة ما بعد الظهر معاً .. وفى طريق العودة من الزيارة ، استطاع الطفل أن يستجمع شجاعته ، واعتماداً على القرب بينه وبين والده وبعد أن استعاد الاطمئنان بزيارته لأمه ، بدأ ينقى خيالاته بكشفها لوالده وطلب منه توضيح الحقيقة ، وقد قال الطفل لوالده « أريد أن نتحدث مرة ثانية يا والدى » .

إن الاعتراف بانفصام الزواج مهمة تتميز عن الاعترافات الأخرى المثيرة للمشاكل ، وتكون تلك ثانية أكثر صعوبة بالنسبة لكثير من الأطفال فى دراستنا خلال العام الأول فى تحقيق المهمة الرئيسية للاعتراف بانفصام الزواج .

المهمة (٢) :

استعادة الإحساس بالتوجيه والحرية فى مواصلة الأنشطة المعتادة:

ثمت مهمة أساسية أخرى أمام الأطفال تتمثل فى استئناف أنشطتهم ، بالسعادة الملائمة وتعهده النشاط الذى يقومون به باهتمام برغم القلق والانشغال بسبب الأزمة القائمة فى البيت ، ولإنجاز هذه المهمة ، يحتاج الطفل إلى تحقيق قدر يسير من السيطرة على القلق الشديد الناتج عن انهيار البنية الأسرية . وفى البداية يظل الأطفال فى كل الأعمار مركزين اهتمامهم على أحداث البيت. وغالباً ما يكون عدد كبير منهم غير قادرين على مغادرة البيت لفترة زمنية طويلة. وإذا فعلوا ذلك، فمن المحتمل أن يواصلوا انشغالهم بالأحداث العائلية. ومن ثم: إن عودة الطفل للمدرسة ، ولعبه ، وجماعة الأقران تعتمد على القدرة على إزاحة الطلاق عن موقعه الأساسى فى بؤرة تفكيره وشعوره ، واستعادة الهدوء والأمل للتهيئة للعودة للأنشطة المناسبة لعمره .

وعقب انفصام الزواج ، يظهر على كثير من الأفراد بعض الأعراض والتغيرات

المزاجية التى تتعارض بشكل خطير مع قدرتهم على أداء أنشطتهم المعتادة . فقد ينشأ الصغار يملكهم الخوف من الانفصال ويصبحون قلقين عندما يذهبون إلى لحضانه ، وغالباً ما يكونوا مستشارين انفعالياً ويكون سبب الانفصالات الكثيرة بالنهار والليل . وقد يعانى عدد كبير منهم من الكوابيس ويستيقظون عدة مرات اثناء الليل ، مما يؤدى إلى إحساسهم بالتعب خلال الأيام التالية .

وبالنسبة للأطفال فى سن المدرسة ، فإن القلق على الوالد المكتئب أو الغاضب يؤدى إلى إبعاد الكثير منهم عن المخاطرة بالابتعاد عن البيت .

وقد يتغلب الأسى على بعضهم فينسحبوا فى أسى لكى يجلس الواحد منهم طول اليوم فى حجرات مظلمة ، وبعض الأطفال فى هذه المجموعة العمرية يكونوا مشغولين بمجالات عن النشاطات الجنسية للوالدين . على سبيل المثال . فإن الطفل (س) التى كانت تبلغ ١٠ سنوات من العمر ، كانت تشكو من أنها فقدت الرغبة فى المدرسة ، وفقدت الاهتمام بأصدقائها وفى دروس البيانو . « وفى كل شىء منذ أن رحل والدى » . وذكرت أنها كانت تعتقد طول اليوم أنه كان « يتسكع طول مع صديقتة » . وكانت تفكر باستمرار فى مها وصديقتها وكانت تصاب بالرعب من فكرة « احتمال وقوع أمها فى الحب » . وتساءلت كيف أستطيع أن أركز فى الدراسة وأن أفكر أن أمى وأبى يتعانقون ويضاجعون أناس آخرين ؟ .

وقد يتعرض بعض أطفال المدرسة الابتدائية لتمزق خطي فى التركيز وقدرتهم على التعلم . وذكر كثيرون منهم أنهم فشلوا فى فهم تعليمات المدرسين لأنهم كانوا منهمكين فى التفكير فى الطلاق . بالإضافة إلى ذلك فإن قدرتهم على اللعب تعوقت بشكل خطير خلال تلك الفترة . وذكر الصغار كبحاً أساسياً لقدرتهم على الاستمتاع بأنشطة ما بعد المدرسة التى كانت تتراوح بين الأنشطة الرياضية ورقص البلية . وكان يصعب عليهم الاحتفاظ بالصدقة الرياضية ورقص البالية . وكان يصعب عليهم الاحتفاظ بالصدقة حيث أصبحوا عصبيين ، شديدي الاستشارة ونزاعين للسيطرة ، كثيرى الطالبات معارضين مع أصدقائهم الذين سرعان ما عادوهم أو ابتعدوا عنهم .

وقد هرب بعض المراهقين من البيت ومن محيط أنشطتهم المعتادة . وكان هؤلاء الصغار يزوغون (يهربون) من المدرسة ويبحثوا عن أصدقاء جدد ، كان كثير منهم منغمسين فى جنح بسيطة أو خطيرة ، وأنشطة جنسية وأدمنوا الشراب ، مما لفت انتباه سلطة المدرسة لهم، وقد لازم مراهقون آخرون البيت ويضاف لتلك المجموعة الأخيرة صغار آخرون ذكروا أنهم كانوا يقطعون الحجرة ذهابًا وإيابًا بقلق حتى الساعات الأولى من الصباح عندما كان الوالد الراعى يقضى الليل بالخارج .

وقد نجح عدد قليل من الصغار فى كل مجموعة عمرية ، فى المحافظة على أنشطتهم المعتادة فى ذروة المساء ، ولم تؤدِ حدة المحنة الأساسية للطفل وخطورة التمزق فى عملية التعلم إلى التنبؤ بأى الأطفال سو يستأنف الدراسة بنجاح ، وأى طفل يمكن أن يفشل فى ذلك ، قد استطاع كثير من الأطفال الذين أظهروا استجابات غير منظمة البداية أن يؤدوا عملهم المدرسى وأن يلعبوا بحماس لا يخبوا.

كيف ينجز الأطفال هذه المهمة ؟

يستطيع معظم الصغار فى العام التالى بعد انفصام الزواج الانغماس من جديد فى أنشطتهم المعتادة . والصغار الذين لهم تاريخ فى الإنجاز الناجح فى العديد من المجالات ، الأطفال الذين كانوا قبل طلاق والديهم يتعلمون جيدًا ، لهم صداقات بصورة جيدة ، يلعبون جيدًا ، لهم أنشطة واسعة ويمارسونها بصورة جيدة : وجدوا هذه المهمة سهلة الإنجاز عندما استعادوا نمطهم السابق للسلوك الكفء . والصغار الذين كانوا يتمتعون بمساندة أصدقاء صبورين أوفياء ومدرسين مهتمين ، استعادوا طريقهم بشكل أسرع واستطاعوا بالتدرج ن يستفيدوا من مصادر الرضا فى المدرسة وفى الملعب لكى يوازنوا الحرمان فى البيت ، واستطاع آخرون العودة إلى أنشطة سارة ومتابعات أكاديمية فقط عندما كان الوالدان يعودان إلى هدوءهما وعند استقرار حياتهم الأسرية المنزلية .

الأطفال الذين يفشلون :

لقد عجز عدد كبير من الأطفال عن استئناف أنشطتهم المعتادة فى المدرسة

والملاعب بعد طلاق والديهم ، ويظنون . منعزلين قلقين وغير سعداء عندما تستمر مشكلتهم فى المدرسة والملاعب ، وقد يبدو هؤلاء الأطفال عاجزين عن الاستفادة الكافية من المساندة المتاحة من جانب المدرسين ، وحتى المدرسين المحبين ، والحساسين الذين يبذلون جهوداً مفضية لجذب الأطفال ومساعدتهم بواسطة العديد من الطرق .

وقد يعانى هؤلاء الصغار أيضاً من صعوبات فى المحافظة على الصداقات مع الأقران ويميلون إلى الانسحاب إلى بيوتهم بعد المدرسة عندما يكونوا مع الطرف الراعى ، وأن ينتظروا عودتها ، ويشاهدوا التلفزيون ، أو يلعبون مع الأطفال الصغار . وقد يظل بعض المراهقين منهم منهمكين فى أنشطة لا تعزز تقدمهم الأكاديمى أو الاجتماعى . ويستمر أطفال آخرون مشغولين بحماس فى المعارك الوالدية ، بينما يقضى آخرون وقتاً طويلاً بصحبة والد يعانى من القلق والاكتئاب .

المهمة (٣) :

التعامل مع الخسارة والإحساس بالرفض :

يعتب استيعاب الحزن على رحيل أحد الوالدين من البيت ، والتوافق مع الخسارة الجزئية والكلية لذلك الوالد أهم وأصعب مهمة يجب أن يستوعبها الأطفال ويتعاملون معها . ولإنجاز هذه المهمة ، يكون مطلوباً من الطفل إلى ذلك : فإن المهمة تقضى بأن يتغلب الطفل على الإحساس العميق بالرفض والتحقي الذى يتأتى عقب رحيل الوالد غالباً ، وتتطلب تلك المهمة فترة طويلة من الإصلاح يمكن أن تمتد عدة سنوات ، علاوة على ذلك ، فإن طفل من أبناء المطلقين مثقلاً أكثر من الطفل الذى يفقد أحد والديه بسبب الموت ، لأن الطلاق قرار اختيارى واختيار أحد الوالدين لرحيل عن البيت يدل على تعقد عملية التغلب على الخسارة وإحساسات الرفض التى يشعر بها الطفل .

وثمة عبء إضافى وقت انفصام الزواج ، وبعد الانفصام أيضاً ، يتمثل فى

إدراك الأطفال أنهم بحاجة إلى الحفاظ على حب واهتمام الوالد الغائب أو الزائر (أحياناً) لضمان استمرار تلك الزيارات . بهذه الطريقة : فإن تلك الزيارات تطيل فى امد تلك المهمة لعدة سنوات .. والتفسير الذى وجده الأطفال مقنعاً وهو « لو كان يجنبى لما ترك الأسرة » امتد أيضاً بصورة أخرى « إذا كان يجنبى » لزارنى مرات أكثر ولقضى معى وقتاً أطول ، وهو اعتقاد أصبح حاداً بفضل عدم وجود نمط ثابت للزيارة نتيجة لذلك : فإن حساسية الطفل بسبب شعوره بالرفض يمكن أن تستمر خلال السنوات التى تلى الانفصال بين الوالدين .

وغالبا ما يشعر الأطفال فى كل الأعمار بالخسارة من جراء عدم حضور الوالد داخل الأسرة كحادث ذا أهمية بعيدة المدى ، حتى عندما يكون مصحوباً بالشعور بالراحة بعد مشاعر حادة سابقة مصحوبة بالعنف والعراك بين الوالدين . والحزن الظاهر ، المصحوب بالتشنج ، والدموع الغريزة والتنهد التى تكون ملحوظة بين أطفال المرحلة المبكرة من التعليم ، وفى بعض الأحيان يكون الحزن طاغياً ، ليس لدى أب ، أنا بحاجة إلى أب ، هكذا أفصح طفل عمره ٦ سنوات وكان من الصعب اسكاته .

ومن الواقعى أن تتوقع أن يترك كل من الطلاق والحرمان بقية دائمة من الحزن ، وقد يتضمن حساسية مستمرة لخسارة تالية لعلاقة حب أخرى ، وبالنسبة لأبناء المطلقين ، يمكن أن يتضمن التراث أيضاً حساسية مستمرة تجاه مشاعر الرفض وتلاشى احترام الذات ، والحسم الناجح يمكن أن يصور تعايشاً مع تلك المشاع ، ومع قدرة حيوية على الاستمتاع بالحياة وثقة واقعية بالنفس .

كيف ينجز الأطفال هذه المهمة :

يمكن أن يتم إنجاز هذه المهمة بتحديد المزدوج بسهولة جداً عندما تكون الخسارة جزئية وعندما ينشئ الوالد والطفل علاقة تعاونية ثابتة متبادلة ، وقد يستطيع كثير من الآباء والأطفال عمل ذلك ، بما فى ذلك الذين نمو متقاربين عقب الطلاق ، ومن خلال تلك العلاقات ، يتم تخليص الطفل من حزنه ، وفى واقع

الأمر ، فمن المحتمل أن تعزز بمعرفة أن الوالد اختار بمحض اختياره أن يزور طفله وأن يواصل جهوده فى عمل ذلك ، رغم عقبات الزمان والمكان المخيفة .

ومن المحتمل أن عدداً قليلاً من الصغار يستطيعون التعامل بنجاح مع الزيارات القليلة وحتى الزيارة غريبة الأطوار ، بتحويل انتباههم إلى أماكن أخرى وبالانهماك فى المدرسة ، وإنشاء علاقات مع الأصدقاء ، والمدرسين ، أو الأم الشرعية ، وبعد فترة من الاستجابة الحادة لرحيل الأب ، يصبحوا قادرين على تحويل انتباههم فى اتجاهات أخرى بدون صرع ظاهر ، خاصة عندما يكون سكن الأب بعيداً ، ويكون الصغار فى هذه المجموعة يتمتعون بالحرية من جانب كبار محيين أكفاء داخل وخارج عائلاتهم .

وعندما يصلون إلى سن المراهقة ، يبدو عدد قليل من الصغار قادرين على رفض مضاد تجاه أحد الوالدين الذين تخلو عنهم ، وقد يكتسبون قوى جديدة فى سن المراهقة تمكنهم من اتخاذ موقف قوى مستقل والتعامل بنجاح مع مشاعرهم السابقة بالضرر والحقاره بسبب التخلّى عنهم ، وقد يتخذ رفضهم المضاد شكل إدراك جديد للوالد كمثال غير مرغوب .

الأطفال الذين يفشلون :

لسوء الحظ ، فإن معظم الأطفال الذين يشعرون بخسارة كبيرة لأحد الوالدين عقب الطلاق والذين يجيب أملهم بسبب أنماط الزيارة طول الوقت لن ينجحوا فى التغلب على اكتئابهم وشعورهم بأنهم غير محبوبين أو غير ذى قيمة ، وقد تثقل ثقتهم القليلة بأنفسهم فاعليتهم التعليمية وعلاقاتهم بالأقران ، ويصبح عدد كبير منهم مصابين باكتئاب مرضى ، وقد تتدعم خيالاتهم التى تطورت كاستجابة مبكرة لانفصام الزواج وتزداد قوى لدى هؤلاء الأطفال الذين ظلوا مشغولين بخيالات عودة الوالد ، بينما كانوا مدركين لعدم حدوث ذلك ، فإنهم يبدون غير قادرين على تصديق أو رفض تخيل عودته المتوقعة التى كنت تشحذ أحلام يقظتهم ، وكبار الأطفال الذين يفشلون فى تبديد إحساساتهم بالرفض كان محتملاً أن يظهروا الغضب والعدوانية .

إن العوامل التنمائية تكون ملائمة لقدرة الطفل على إنجاز تلك المهمة الخاصة للتعامل مع الخسارة والإحساس بالرفض ، ومن المحتمل أن يستغرق الأطفال فى العمر الأوديبى فى خيالات عودة الوالد إلى العائلة ، ويظلون يعانون من الخسارة بشكل شديد ، وفى نفس الوقت ، فإن الأطفال من مختلف الأعمار الذين كانوا يستمتعون استمتعوا بعلاقة حب وثيقة مع الوالد أثناء الزواج فإنهم عانوا صعوبة فى استيعاب خسارتهم ، وتعرضوا لممارسات والديه ضعيفة من الوالد المتبقى .

المهمة (٤) :

التسامح مع الوالدين :

ثمة مهمة أساسية أمام الأطفال فى عملية التخلص من الانفعالات الحادة التى ترسب عن انفصام الزواج كانت تتمثل فى التعامل مع الغضب الشديد الذى كانوا يشعرون به تجاه أحد الوالدين أو كليهما ، وهذا الغضب لا يبعد الأطفال عن الوالد فقط ، ولكنه كان يدفع الطفل - خاصة فى سن ما قبل المراهقة والمراهقين الصغار - إلى سلوكيات عدائية موجهة إلى معاقبة الوالد وإلحاق الضرر به - ذلك الوالد الذى كانوا يتهمونه بالتسبب فى الطلاق ، ويقابل هذا الغضب حب الطفل واعتماده على الوالد ، والحاجة المتبادلة للوالد والطفل إلى التوفيق ، العفو والاشترك فى عائلة ما بعد الطلاق ، وفى هذه المهمة نواجه واحدة من المشكلات الرئيسية المؤلمة الناجمة عن عملية الطلاق ، وهى شعور الطفل بان الطلاق بتعارض تماماً مع مصالحه ، ويكون ذلك مرتبطاً باتهامات مؤداها أن الوالدين كانا غير مباليين بحاجات الطفل ، وأنهما كان يتصرفان بدافع أنانى يهدف إلى تحقيق مصالحهما .

وغالباً ما يلاحظ أن الاتهامات كانت مريرة فى بعض الأحيان ، وكان الوالدين يعتبران بمثابة « أفراد فاشلين فى مسئوليتهم الأساسية كوالدين » ، وبأنهما مخطئان فى نصحهما لأبنائهما بالتحلى بالأخلاق على حين يتبعان توجهات مختلفة فى

سلوكهما الخاص « وبأنهما مستغلين لعجز الأطفال » ، وبأنهما رافضين بقسوة ،
 لحب الأطفال وصدقاتهم « ، وبأنهما لا مبالين وغير شاعرين بتعاسة الأطفال » ،
 وبأنهما جبناء وضعفاء ، غير قادرين على مجابهة الظروف القاسية إلى بالهرب ..
 ويكون الغضب المصاحب لتلك الاتهامات شديداً وسيطر على نفسية الصغار
 وأحياناً تحدث حالات هياج ، وصراخ لمدة ساعات وتهديدات بالعنف موجهة إلى
 الحياة مثل تشاجر الأطفال مع أصدقائهم فى اللعب أو الدخول فى مشاكل مع
 المدرسين والبالغين الآخرين فى السلطة .

كيف ينجز الأطفال هذه المهمة ؟

من المهم التمييز بين التخلص التام من إحساسات الغضب وتقليل ذلك
 الغضب بحيث لا يؤثر على الطفل بشكل أساسى ، أو يسيطر على علاقة الوالد
 بالطفل ، وربما وجب الاعتراف بأن بقية من ذلك الغضب تظل بلا جسم ، فقد
 يظل الأطفال فى حالة حزن ، يشعرون لسنوات طويلة أن جزءاً هاماً من نموهم قد
 أنقل بسبب فشل أو عجز واليهم أو عدم استعدادهم لأن يظلوا أوفياء خلال
 الزواج ، وهذا الغضب الراسخ فى مدركات دقيقة بعدم إخلاص الوالدين ليس
 محتملاً أن يختفى بمرور الوقت ، رغم أن شدته تتلاشى مع الأيام .

وبالنسبة لبعض الصغار ، تتحقق مهمة العفو عن أحد الوالدين أو كليهما من
 خلال علاقة وثيقة جديدة مؤكدة مع أحد الوالدين ، والصدقة بين الطفل والوالد ،
 والتي نشأت أثناء الأزمة بدافع الحاجة المتبادلة تعمل ليس فقط على موازنة تعاسة
 الطفل وشعوره بالوحدة ، ولكنها أيضاً تخفض الغضب الشديد الذى أثير ، ومن
 خلال إطار العلاقة المتبادلة الجديدة ، يكتسب الأطفال نظرة جديدة واقعية بشأن
 الطلاق وفهماً أفضل لتوزيع المسؤوليات على كلا الطرفين ... وتنشئ هذه العلاقة
 أيضاً نضجاً لدى الطفل .

ويستطيع الأطفال أن يسيطروا على بعض من غضبهم الشديد عندما يستطيعون
 ملاحظة التحسن الذى يطرأ على أحد الوالدين بعد الانفصال ، وعندما يزداد فهم

الأطفال لذلك التغيير ، يبدأون يتعرفون على حاجات الوالدية كشيء مستقل ومتميز عن حاجتهم ، ويستطيعون أن يقولوا بنظرة هادئة : « الطلاق أفضل لأمى رغم أنه ليس كذلك بالنسبة لى » ، وأخيراً : عندما تستقر الحياة المنزلية ويشعر الأطفال بتلاشى قلقهم وبقدر أكبر من الراحة ، يتلاشى غضبهم نتيجة لذلك .

الأطفال الذين يفشلون :

من المؤكد أن تستمر مجموعة كبيرة لسنوات طويلة تشعر بالغضب تجاه أحد الوالدين أو كليهما ، وقد يقع هؤلاء الصغار فى أنشطة جنوحية واتصالات جنسية غير شرعية ، وقد ينجح آخرون فى التوافق مع المطالب الخارجية للمدرسة والحياة الاجتماعية ، ورغم ذلك ، فإن استمرار غضبهم الشديد يبقى جوانب رئيسية من تجربة الطلاق حية فى نفوس الصغار ، ويكشف عن عجز الطفل عن تقبل الطلاق ، وقد يبدو للغضب المرتبط بالطلاق قوة دائمة ، خاصة عندما يتوحد الطفل وأحد والديه ضد الوالد الآخر .

ورغم أن الأطفال فى كل الأعمار يشعرون بارتفاع نسبة القابلية للاستشارة وقت انفصام الزواج ، فإن استمرار الغضب يكون واضحاً فى صغار المراهقين وأطفال ما قبل المراهقة ، وقد تظهر عدوانيتهم منسجمة مع الحاجات النفسية والصراعات التى تميز الصغار فى تلك المجموعة العمرية فى علاقاتهم بوالديهم .

الذنب :

رغم أن الإحساس بالذنب بسبب المسئولية عن التعجيل بالطلاق ليس ظاهرة شائعة لدى أبناء المطلقين ، فإنه يمكن أن يثقل كاهل هؤلاء الأطفال الذين قد يعتبرون أنفسهم مسئولين عن الطلاق ويعزون لأنفسهم إحساساً بالقوة والشر فى نفس الوقت ، وقد اعترفت إحدى هؤلاء الأطفال بأنها كانت ساحرة واستدلت على ذلك بموت جدتها وطلاق والديها .

وتحدث معظم اتهامات الذات فى الأطفال الصغار الذين تكون لهذه الاتهامات عندهم معانى مختلفة ودرجات ثبات مختلفة أكثر مما لدى الأطفال الأكبر سناً .

وعلى ذلك : فعندما تتأصل اتهامات الذات فى عدم التضج المعرفى للطفل ، فإنها تتبدد فى المسار الطبيعى للنمو كلما زادت قدرة الطفل على فهم طبيعة السبب والنتيجة .

وعندما يوجد اتهام الذات لدى كبار الصغار ، يكون احتمال استمرارها أكبر . وفى واقع الأمر لم يبدو الشعور بالذنب بسبب كون الطفل سبباً فى الطلاق كمهمة يستطيع الطفل الكبير إنجازها إلا بمساعدة العلاج النفسى ، وقد بدت المعايير التربوية من جانب الوالدين وغيرهما من البالغين مصدراً قليلاً للراحة .

المهمة (٥) :

تقبل استمرارية الطلاق والتخلى عن الحنين لعودة عائلة ما قبل الطلاق :

يرتبط بالسيطرة الناجمة على المشاعر التى يثيرها رحيل الأب القبول التدريجى من جانب الطفل لدوام الطلاق ، وقد يبدو هذا القبول حرجاً فى قدرة الطفل على المحافظة على توافق جيد فى مرحلة ما بعد الطلاق أو الزواج الجديد لأحد والديه .

وتم صراع داخلى رئيسى لدى الطفل فى البداية ، وهو صراع دام سنوات طويلة عند كثير من الأطفال ، يتمثل فى الميل للقوى الناتج عن الرغبة والحاجة إلى إنكار الطلاق فى مقابل للحقيقة الواضحة الدائمة لتمزق الزواج ، وقد حاولنا من قبل أن نصف الجاذبية العظيمة لإحساس الطفل فى الأسرة المطلقة بأنه مرفوض ، وكيف أن ذلك الرفض قد يتعزز من كلا الوالدين ، وبغضب الطفل وشعوره بالذنب وقت انفصام الزواج .

إن قوة رغبة الطفل فى إعادة عقاب الساعة إلى الوراء إلى فترة الزواج السليم لوالديه لا يمكن التقليل من شأنها ، وقد يبذل الطفل محاولات مستميتة لاستعادة الزواج المحطم بالرشاوى ، بالمطالبات ، وبالتهديدات ، وبالدموع الغاضبة وقت انهيار الزواج ، وأحياناً يستمر رفض تقبل الطلاق إلى ما بعد الزواج التالى لأحد الوالدين أو لكليهما ، حيث يظل الأطفال يرون أمانى سحرية فى عودة التوحد الوشيك فى الابتسامات أو المصافحات التى يتبادلها الزوجان المطلقان .

كيف ينجز الأطفال هذه المهمة ؟

يتم استيعاب فكرة الدوام خلال سنوات طويلة ، حيث يتحول الأمل فى استعادة الزواج بالتدرج إلى حقيقة . ولن يتأتى ذلك الاعتراف بسهولة . ولكن كثيراً من الأطفال يبذلون جهوداً جبارة فى إنجاز هذه المهمة ، مقدرين حالة الطلاق ويراجعون تطلعاتهم باستمرار ، متقبلين الدليل الجديد بعناية ، ويعيدون صياغة أفكارهم بعناية ، ويعيدون صياغة أفكارهم بعناية بالغة .

فعلى سبيل المثال ، قال أحد الأطفال يبلغ من العمر ١١ سنة ، بعد خمسة سنوات من انفصام الزواج : " إنه تصور حديثاً أن الزواج عبارة عن شيء يشبه لو أنك كسرت زجاجة والتقطت قطع الحطام فى الحال فسوف تتلاءم مع بعضها تماماً ، ولكن إذا أخذت قطعة واحدة يلتئم مرة ثانية " . لقد تعلق الطفل بخياله التوفيقى خلال العامين التاليين للانفصال . وبعد سنوات فقط قبل دوام الطلاق بكلماته هو " قطعنى الزجاج لن تلتئمان " . ومن الواضح أن التفكير المطول قد ولد هذه الصياغة الجديدة عند الطفل .

الأطفال الذين يفشلون :

يظل مجموعة كبيرة من الأطفال عاجزة عن تقبل الطلاق كأمر نهائى . وبعد خمسة سنوات من انفصام الزواج يظلون ينتظرون استعادة الأسرة السليمة . وقد يقضى بعض الصغار ساعات كثيرة يوماً يتخلون عودة زواج الوالدين . وقد يصبح عدد كبير من هؤلاء الأطفال مصابين باكتئاب مرضى .

وكثير من الأطفال الذين يفشلون فى خلال السنوات الخمس فى أن يؤمنوا بدوام طلاق والديهم غالباً ما كانوا يعيشون فى أسر مصابة بالاكتئاب العاطفى ، وبالمقارنة بصورة الأسرة السليمة كما عرفوها . ويكون بعض الصغار مرتكبين بسبب سلوك الوالدين الذين استمروا على اتصال ببعضهما البعض وأعطيا الأطفال رسائل مشتركة بشأن نيتها فى إعادة التوحيد .

إن العوامل النمائية تكون ملائمة لإنجاز هذه المهمة. فقد يبذل الأطفال الصغار جهوداً ضخمة لإنجازها لسنوات طويلة حتى ينضجوا ، وكثيراً ما يواجهون صعوبة بالغة فى طرح الخيال الذى يظل جذاباً ومستمراً . وقد يتقبل كبار الأطفال دوام الطلاق بشكل أسهل ، ولكن فى بعض الأحيان يشعرون أن ولاءهم لأحد الوالدين كان يرتبط بخيال استعادة الزواج . وقد عززت خيالات الكبار تلك خيالات الأطفال ومالت لتثبيتها فى مكانها . وقد تستمر أهمية الموازنة بين الإشباع والحرمان فى أسرة ما بعد الطلاق ، وبالمقارنة بالأسرة السابقة ، وبالنسبة لكثير من الشبان من مختلف المجموعات العمرية .

المهمة (٦) :

حسم قضايا العلاقة :

ثمة مهمة أساسية أمام أبناء المطلقين مشتركة بين الأطفال فى جميع الأعمار وتسبب لهم قلقاً كبيراً مؤداها : " أن الحب الفهم المتبادل والثبات هى مكونات محتملة للعلاقات الإنسانية " . وربما كانت المهمة النمائية الرئيسية التى يفرضها الطلاق هى . " تحقيق أمل واقعى بشأن العلاقات المستقبلية والقدرة المستمرة على أن يحب المرء وأن يكون محبوباً " . وللوصول إلى هذا الإحساس بالتوحيد النفسى ، سوف يقضى أطفال الطلاق سنوات طويلة من مرحلة الطفولة والمراهقة فى محاولة فهم أسباب فشل زواج والديهم . وبمرور الوقت سوف يراجعون ويعيدون صياغة أحكامهم مرات عديدة بخصوص ما حدث والسبب فى حدوثه . ومن الملوم ، وكيف يمكن العفو .

والأطفال الصغار ، من أبناء المطلقين ، جاهدوا يجاهدون جهاداً مريباً لإنشاء استراتيجيات يمكن أن تحميهم من الفشل . وقد يفكرون فى الموت ، وفى القواعد التى يجب أن تحكم السلوك بين الرجال والنساء . " لقد كذب والدى وخدع كلاهما الآخر ، ولكننى قررت ألا أفعل ذلك " . لقد وضع هؤلاء الأطفال خططاً دقيقة لتلافى الزواج الناتج عن الميول : " سوف أظل لفترة طويلة أبحث عن

شريك الحياة ، ولن أتسرع " وبحثوا عن تفسيرات : " كان عليهما سوياً أن يكونا أكثر روية " ، وأصدروا أحكاماً ، متسرعة فى بعض الأحيان : " أمر أنانية ، وكان لا يجدر بوالدى أن يتزوجها " .

وفى حالات الطلاق لا يكون أى من الصغار من أبناء المطلقين متفانلاً ، ولكنهم يكونوا قليقين على دخولهم مرحلة النضج فى المستقبل . وعندما يمرون بالألم والقلق الإضافى الذى تفرضه مرحلة المراهقة ، يصبح كل شاب مدركاً فشل زواج الوالدين ، ويشعرون بالخوف من تكرار حدوث ذلك فى حياتهم . والصورة القوية التى ناضلوا بشدة وبوعى التخلص منها هى " هل سيحدث لى مثلما حدث لوالدى؟ "

وربما كانت تلك المهمة التى تساعد أبناء المطلقين على استعادة إحساسه الجريح بالذات ومحاولة تحقيق إحساس بالتوحيد والتكامل على المدى الطويل ، هى أهم مهمة لكل من الأطفال والأسر والمجتمع ككل . وخلال سنوات النمو الطويلة سوف يخدم أبناء المطلقين مصالحهم الخاصة باسترداد رؤية من الحب والوفاء فى العلاقات الإنسانية يمكن أن يتطلعوا إليها فى حياتهم المقبلة . وبدورها فإن تلك المهمة تتمثل فى نقل تلك القيم إلى أطفالهم .

كيف يمكن تحقيق تلك المهمة :

رغم أن الأطفال يتصرفون لسنوات طويلة بناء على جوانب عديدة من علاقاتهم فى نظرهم للمستقبل ، فإن التحديات التى تنطوى عليها تلك المهمة تطفو إلى الوعى والشعور الكامل وتبلغ ذروتها فى مرحلة المراهقة ، ومن الملائم اعتبار تلك المهمة باعتبارها مهمة قاصرة على صغار المراهقين .

أن متطلبات هذه المهمة معقدة ومتنوعة طبقاً لظروف الأسرة الخاصة ، وطبقاً لتصرف البالغين والأسباب الخفية التى أدت إلى الطلاق . وحيثما كان الوالدان يتصرفان باحترام مع بعضهما البعض ومع الأطفال ، فإن المهمة تكون صعبة بشكل متناهى .

وثمة قضية عملية فى تقدير النجاح أو الفشل فى هذه المهمة هى غياب المعلومات المتعلقة بالتوافق التالى الذى سيحققه هؤلاء الصغار خلال مرحلة نضجهم . فهؤلاء الصغار الذين يدخلون مرحلة المراهقة المتأخرة وبداية مرحلة النضج بثقة أكبر وإنجازات تتلائم مع عمرهم يكونون فى واقع الأمر هم الصغار الذين استطاعوا أن يضعوا طلاق الوالدين فى إطار مرجعى يلقى الضوء على قرار الوالدين . وسواء كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح ، فقد يتوصل هؤلاء الشبان إلى تفسير يساعدهم على الحصول على نتيجة ، بالإضافة إلى مساعدتهم على تمييز أنفسهم عن والديهم .

والأطفال الذين ينجحون فى هذه المهمة يستطيعون الاعتماد على أشخاص خارج الأسرة الأصلية أو كموجهين للمساندة والتشجيع . وهؤلاء الشبان تكون لديهم القدرة على الوصول إلى العالم المحيط بهم ، إلى أزواج الأمهات أو زوجات الأب ، إلى المدرسين ، والأصدقاء ، وأسر الأصدقاء ، والأجداد ، للمحافظة على نوع من البنية الأسرية بعد الطلاق . مثل هؤلاء الأطفال يستطيعون . بإحساسهم بالقوة والاستجابة بناء نظم لقيم بديلة . وأن يجدوا أناساً أكبر وشجاعة أكثر مما لدى نضرائهم ف الأسرة السليمة .

الأطفال الذين يفشلون :

غالباً ما ينجح الأطفال ذوى التوافق الكافى فى إنجاز المهمة السالفة . فعلى سبيل المثال ، عبرت الطفلة (ج) البالغة من العمر ١٤ سنة عن السخرية من كل العلاقات : " لقد رحل والدى لأن أمى كانت تضايقه . وأنا أفعل ذلك طول الوقت " واعترف آخرون ، عندما اقتربوا من سن البلوغ بأنهم لن يتزوجوا وكشفوا عن مدى اقتناعهم بأن زواجهم مكن أن يفشل كما فشلوا عدم الثقة فى قدراتهم على الاختيار العاقل أكثر مما فعل والدهم . وقد تسرب العديد من هؤلاء الصغار من المدرسة . وأصيب البعض الآخر باكتئاب شديد فى مرحلة المراهقة عندما تغلبوا على حزن الطلاق فى هذا المجال العمرى وأحسوا بحدة الشعور بأن

علاقتهم الهامة يمكن أن تنتهى نهاية حزينة بسبب عجزهم عن إحداث جوانب هامة من حياتهم . كذلك فإن من بين الأطفال الذين فشلوا فى هذه المهمة هم أطفال عاجزون عن فهم الطلاق ، ومن ثم فقد استمروا ينظرون إلى قرار خاطيء أو أنانى .

وفى إنجاز هذه المهمة ، فإن أبناء المطلقين يماثلون نظراءهم فى الحرمان . فكما أن الطفل الذى يفقد أحد والديه بسبب الموت عليه أن يعرف أن كل البشر إلى زوال وان كل العلاقات سوف تنتهى بالفعل ، كذلك ينبغى أن يعرف أبناء المطلقين أن يستفيدوا من فرصة علاقة الحب ، رغم القلق الواقعى حول احتمال فشلها .

ولتحقيق ذلك ، يحتاج أبناء المطلقين إلى اكتساب بعض الثقة فى قدراتهم وقيمتهم الذاتية ، بالإضافة إلى قدراتهم على أن يجربوا وأن يكونونا محبوسين ، وعليهم أن يتقبلوا فكرة طلاق الوالدين ، وأخيراً فإنهم مطالبون بالتخلى على الغضب السابق أو الشعور بالذنب الناتج عن انفصام زواج الوالدين وأن يتوصلوا إلى بعض الفهم ، والعفو ، والمودة تجاه والديهم . وعلى ذلك فإن هذه المهمة تقوم على الإنجاز الناجح للمهام الخمسة التى سبقت هذه المهمة الأخيرة.

وقد ثبت أن المراهقة - كما هو متوقع - هى فترة حساسية شديدة فهناك حساسية شديدة فهناك من البنات الصغيرات ما يصبن بالاكئاب أثناء المراهقة عندما يعاودهن الشعور بالحساسات السنين الأولى لطلاق الوالدين ، والعديد منهن، واللاتي استطعن أن يتكيفن بشكل جيد كن شديدات القلق بشأن احتمال الإخفاق فى علاقتهن بالرجال . ويبدو أن الفرصة الثانية التى تقدمها المراهقة يمكن أن تؤدى ليس فقط إلى التقدم ، ولكنها قد تؤدى إلى الانحدار كذلك . ورغم ذلك، فإن قوة الالتئام المحتملة لسنوات المراهقة مهمة نظراً لأنها تظهر كفترة نقاهة طبيعية بالإضافة إلى كونها فترة تدعيم للمكاسب السابقة التى حققتها العملية النمائية . وقد تكون المراهقة مهمة بالنسبة للأطفال الذين تعرضوا لضغط شديد خلال سنواتهم الأولى.

إن التوافق مع الأثر متعدد الجوانب لطلاق الوالدين أثناء الطفولة يضم جميع المهام التى وصفناها وربما غيرها ، كذلك . وتتطلب كل مهمة نسيجاً معقداً من القدرات لدى الطفل ، ولدى الوسط الاجتماعى . وفى بعض المهام يصبح النجاح أو الفشل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمستوى النضج النمائى للطفل ، كما هو الحال فى قدرة الطفل على استيعاب معنى الطلاق وفصل الحقيقة عن الخيال . وفى مهام أخرى تعتبر نوعية الحياة فى محيط أسرة الطفل ، عاملاً محددًا رئيسيًا فى النتيجة : كقدرة الطفل على التخلص من الانشغال باستعادة الأسرة الأصلية .

وفى النهاية ، فإن إسهام العوامل النمائية يختلف وتتووع التصورات التى تظهر كمثير .



المراجع

- ١ حسن مصطفى عبدالمعطي (١٩٩٣): المشكلات النفسية لأبناء المطلقين . المؤتمر السنوي السادس للطفل المصري . القاهرة: مركز دراسات الطفولة، جامعة عين شمس.
- 2- Bloom, B.L., White, S.W., & Asher, S.J.(1979) : Maritaldisruption as a stressful life event. In C. Levinger, & O.C. Moles (Eds.), Divorce and separdtion. New York : BasicBooks, Inc ,
- 3- Brown, B.F. (1980) :A study of the school needs of children in one - parent families. The Phi Delta Kappan.
- 4- Campbell, A., Converse, P., & Rodgers, W. L. (1996) :Thequality of American life : Perceptions, evaluations and satisfactions. New York: Russel Sage Foundation.
- 5- Foster, H.H. & Freed, D.J.(1980) : Joint custody: Legislativereform. Trial.
- 6- Hetherington, E.M., & Cox, R.(1996) : Divorced fathers. Family Coordinator.
- 7- Hetherington, E.M., Cox, M., & Cox, R.(1978): The aftermath ofdivorce. In J.H. Stevens. Jr., & M. Mathews (Eds.) ,Mother-child relations. Washington, D.C. : National Association for the Education of Young Children
- 8- Hetherington, E. M., Cox, M., & Cox, R.(1979:Play and social interaction in children following divorce. Journal of Social Issues.
- 9-Holmes, T.H., & Rahe, R.H. The social readjustment rating scale.Journal of Psychosomatic Research, 1967.
- 10- Hunter, J. E., & Schuman, N.(1980) : Chronic reconstitution as a falily style. Social Work.

- II- Kalter, N.(1977) : Children of divorce in an outpatient psychiatric population. American Journal of Orthopsychiatry
- 12- Kelly, J., & Wallerstein, J. (1980): The effects of parental divorce : Experiences of the child in early latency. American Journal of Orthopsychiatry.
- 13- Kulla, R.A., & Weingarten. H.(1999) : The long-term effects of parental divorce in childhood on adult adjustment. Journal of Social Issues.
- 14- Parkes.E.M. Bereavement :(1992): Studies of grief in adult life. New York : International Universities Press.
- 15- Rutter, M.(1991) : Parent-child separation : Psychological effects on the children.Journal Child Psychology and Psychiatry.
- 16- Tessman, L. H. (1998) :Children of parting parents.NewYork : Jason Aronson.
- 17- Wallerstein. J. (1977) : Some observations regarding the effects of divorce on the psychological development of the pre-schoolgirl. In J. Oremland, & F. Oremland (Eds.), Sexual and genderdevelopment of young children. Cambridge, Mass : BallingerPress.
- 18- Wallerstein, J., & Kelly, J. (1994) : The effects of parentaldivorce : The adolescent experience InE.J. Anthony, & C. Koupemick (Eds.) , The child in his family (Vol. 3) New York : Jolm Wiley and Sons.
- 19- Wallerstein,J., & Kelly, J. (1995) :The effects of parental divorce : The experiences of the preschool child. Journal American Academy of Child Psychiatry.
- 20- Wallerstein, J., & Kelly, J. (1996) : The effects of parentaldivorce : Experiences of the child in later latency. AmericanJournal of Orthopsychiatry.

21- Wallerstein, J., & Kelly, J. (1997) :Children and Divorce. Areview. Social Work.

22-Wallerstein. J., & Kelly. J.(1980a) : Surviving the breakup: How children and parents cope with livorce.New York : Basic Books.

23- Wallerstein, J., & Kelly, J.(1980b) : Effects of divorce on thefather- child relationship. American Journal of Psychiatry.

24- Wallerstein, J.S.(1993) : Children of divorce : Stress and developmental tasks, (In. Garmezy, N. & Rutter, M. (Eds.) :Stress . Coping and development in children. New York : McGraw Hill Book Co.

* * *